

فلسفة الأنا والآخر في رواية ((حلم على الضفاف)) لـ : حسبية موساوي

- حوارية أم تدافعية -

مصطفى بوجملين

- جامعة محمد خيذر - بسكرة

الملخص :

إنّ البحث في تمظهرات (الأنا) مع (الهو) - الغيري - لا يعني بالضرورة النظر في الاختلاف الأجناسي بين القطبين؛ فقد يكون (الآخر) جزء من (الأنا) بفعل (التغيّر/التصير) الذي اعتري كينونته، وبذلك تكون المعاينة الكشفية له أسد تعقيدا وتشتتا في نظر (المبدع/الناقد)، الأمر الذي أجاب عنه العمل الروائي النسوي لصاحبته (حسبية موساوي) والذي حمل عنوان : (حلم على الضفاف) ؛ حيث تتعرض الرواية إلى قضية (الأنا) في تجاذباته مع (الآخر) بطريقة سردية تحمل ما يشبه النضج الفكري في مكاشفة هذه المسألة (الفكرية/العقدية) بالتعويل على ميكانيزمات الحكيم الذي تسمه براعة النسج اللغوي وبسحر الشعرية الجمالية . فالنص يدور في فضاءات (الذات/الأسرة/الوطن ...) عند (الأنا/الآخر) في شكل حوار مقارناتي عبر استخدام تقنية (الأنا السارد) المجسدة في شخصية (أحلام) ، والتي تضعها المؤلفة كقناع لها.

بناء على ذلك نضع الإشكالات الرئيسة التي تجيب على فلسفة (الأنا/الآخر) في رواية ((حلم على الضفاف)) ، والتي تتأتى كآتي :

- ما تمظهرات (الآخر) في الميزان القيمي للأنا الساردة ؟
- ما تجليات (الوطن/المنفى) في حوارية الأنا مع الآخر؟
- ما ظلال (التشتت الأسري) الذي يلم بالشخصية (المغتربة/المستلبة)؟
- ما تحديات الحوار الإنساني بين (الأنا) و(الآخر) في المتصور الفكري للأنا الساردة ؟

المداخلة

عدت الرواية جنسا أدبيا وافدا تبوأ مكانته وسط هذا الصرح الإبداعي المتلون؛ إذ أضحت عند بعضهم ((ديوان العرب)) في زمننا الحداثي الراهن؛ ذلك أنها لقيت تجاوبا مع الدائرة القرائية المتلقية لها، لم فيها من تيمات تتباين طقوسها، وتختلف مرجعياتها وأهدافها. لقد عرفت الرواية عند بعضهم على أنها « مرآة أدبية للمجتمع غالبا؛ إذ هي قراءة ظاهره، وكشف مستوره، وملامسة جراحه، ورصد حكاياته الظاهرة والباطنة»⁽¹⁾.

إنَّ رهان السلطة الأبوية على أحقية رياتها للكتابة الإبداعية - السردية تحديداً ، وإعلاء عقيرتها، قد لا يجد تجاوبا في ظلّ وجود أقلام أدبية نسوية، تمتلك أدوات هذا الجنس الأدبي ممّا يجعل منها ذوات تحرّر مكنوناتها لتصيرها إلى لغة بديعة قشبية داخل الجسد النصّي.

عليه ، كان اختيارنا لصوت أنثوي جزائري، ممثل في الروائية المبدعة بـ: (حسيبة موساوي)^(*) ؛ حيث تخيرنا مخاضها الروائي الذي اختارت له عنوانا يدور في فلك الاغتراب الحلمى في فضاءات الحيز، والموسوم بـ: ((حلم على الضفاف)).

بذلك فإننا سعيينا مجتهدين إلى مكاشفة هذا العمل السردى قصد انتشار مركزية التيمة التي تتبنى عليها روايتها، والمتمثلة في إضاءة معالم الاغتراب عند (الآخر)، ونظرة (الأنا) له في ظلّ تجاذبية (المركز/الهامش).

لقد شكّل دال (الآخر) التباسا إشكاليا في المتصور (المعريف/الفكري)، ذلك أنّه يأخذ تجاذبات مفهومية متعددة؛ حيث « يختلف من مكان لمكان، ومن زمان لزمان، ومن ميدان لميدان، فالآخر في المجال السياسي يختلف عن الآخر في المجال الديني، وعن الآخر في المجال الثقافي، وإن كان يجمع بينهم رابطان، أولهما أنّه كل مغاير لأنا، والثاني هو معاناة الأنا منه »⁽²⁾، في حين يرى بعضهم أنّه يشكّل مفهوم الغيرية أو المقابل لـ(الأنا)، « كما يقصد به الأنا الأخرى التي ليست أنا. كما تحيل على الذات الغيرية الأخرى التي تواجه الأنا، والمختلفة عنها دينيا وحضاريا ولغويا، مما يعرضهما لعلاقة ثنائية ضدية قد تكون تارة إيجابية، وقد تكون تارة أخرى سلبية »⁽³⁾.

إنّ مبدأ الاختلاف بين (الأنا) ونظيره (الآخر) في هذا القول ، والذي ينظر إليه عبر مستوياته المتعددة: الدينية/الحضارية/اللغوية، ثمّ يدعمه بمقولة (الضد/التضاد) التي يصدمان بها قد لا يجعله مجليا القضية بشكل يحمل العمق، فقد يحمل الاختلاف معنى الميزة المنقوصة عند الأنا؛ إذ إنّ « المختلف هو ما تفتقر إليه الذات، هو ما لا تملكه؛ أي أنّ الذات في مواجهة الآخر، إنّما تواجه نفسها منقوصة، تنظر في مرآة حاجتها وعوزها »⁽⁴⁾.

إنّ لزومية - الغيرية - في التعاريف السابقة بين ثنائية (الأنا/الآخر)، قد يجعل منها مبدأ مقصى، فقد يحيل (الآخر) على كينونة (الأنا) تحديدا في تضارباتها الداخلية؛ لأنّ «الآخر هو الكلية المزدوجة للكينونة الذاتية وتقويضها في الآن نفسه، وهو يتداخل ويتمرأ في سلسلة غير منتهية، تبدأ من أدقّ الانشطارات الذاتية في علاقة الذات بالذات، عبر زمن شديد الضآلة، ولا تنتهي إلا بانتهاء الوجود البشري في الزمان والمكان، فالفرد يمكن أن يكون آخر حتّى بالنسبة إلى نفسه قبل مدّة قصيرة، ويمكن أن يتحوّل إلى آخر بعدة مدّة قصيرة أيضا. وكلّ شخص هو آخر بالنسبة لأيّ شخص على وجه الأرض»⁽⁵⁾.

بناء ذلك فإنّ نلّفي كثيرا من المثقفين معالجين لهذه الظاهرة «كلّ في مجال تخصّصه هذه الظاهرة التي رغم ما قيل عنها فإنّها تظلّ ذات قيمة علمية وفكرية متميّزة، كونها تسهم في إذكاء شرارة النقاش الذي يدفع بالكثير من القضايا إلى الظهور، رغم ما قد يكون يحوم حولها من طابوهات أو محرّمات»⁽⁶⁾.

لا مشاحة أن تكون رواية (حلم على الضفاف) للروائية (حسيبة موساوي) من بين تلك الروايات النسائية التي عالجت مسألة الأنا والآخر، عبر التغلغل في قضاياها وملاستها من الداخل، فتطمح من خلالها إلى شدّ المتلقي إلى تلك الصور المنتزعة من الواقع بمختلف طقوسه (الاجتماعية/العقدية/ الفكرية)؛ حيث تتيح له « مواجهة أسئلة تثيرها الحياة، تدور حول "الأنا" وما يعترضها من أزمات في أثناء تشكيل هويتها، خصوصا حينما تصطدم بالآخر. فتتضح أمامه إشكالية "الأنا" والآخر، وتتبدى له التشوهات، التي تحاصر الآخر، وبذلك تستطيع الرواية أن تتسلل إلى أعماق الإنسان، لتناقش ما يكتنه في لاوعيه»⁽⁷⁾.

عليه، فإننا سنحاول الاقتراب من حرمان نصّها الروائي، ومعاينة الأرضية البنائية التي يقوم عليها، وهو يسبر أغوار قضية مفصلية شائكة متعلقة بفلسفة الآخر في ميزان الأنا المشاهدة؛ حيث خلصنا إلى ثلاثة عناصر يقوم عليها المعمار السردى لروايتها ((حلم على الضفاف))، وبيان ذلك الآتي :

م1- وهج الأنا / هشاشة الآخر :

لا غرو في أن يكون مبدأ (الصراع/التلاحم) بين (الأنا/الآخر) حاملا لجملة من التقاطعات (الحضارية/ الاستعمارية/ الاستيعابية)، ذلك أنّ «خلفية العلاقة بين الذات العربية والآخر المستعمر مؤسسة على ذهنية التصادم والصراع وفق معادلة طرفها الأول تحكمه قوة استعمارية تريد فرض هيمنتها وسطوتها بأساليب الردع والإذلال، أمّا طرفها الثاني فتحكمه قوة روحية مستمدّة من التشبّث بالقيم الإنسانية النبيلة في أبعادها الشرقية»⁽⁸⁾.

إنّ هذه القيم النبيلة المشار إليها لدليل صارخ على إشراقه الأنا المضمخة بعبوق تراثها المجيد، وعقيدتها الرصينة السمحي، مما يجعل منها مصفاة لتلك المرايا المستلبة المشوّهة، حيث راهنت الروائية ((حسيبة موساوي)) على أن تجعل من (أحلام) الفتاة الحذقة التي تعي الميزان القيمي الذي يجلي حقيقة الذوات من حولها، وبذلك سعت الروائية إلى تهيئة الأرضية للأنا الساردة (أحلام)، عبر تقريبها من الآخر دون واسطة (عارفة/عليمة)؛ لأنّ « منح الذات فرصة التعامل مع الواقع مباشرة بدون واسطة هو المظهر الأول والأساسي في معرفة الحياة عن قرب وبعمق، تلك الحياة المؤسسة على قاعدة إثبات الوجود وحماية (الأنا) من الاندثار والهلاك أو تعرضه للأخطار»⁽⁹⁾. بذلك تمكنت (أحلام) من تصيّد دلالات الهشاشة في شخصية الآخر - العم حسان تحديدا - ؛ حيث تسلط الضياء على مرتكز مهم في (العقيدة/التقاليد)،

والمتمثل في سلطة الرجل داخل أسرته، وانصياع الزوجة لأوامره ومطالبه، وهذا ما جاء في قولها: «بينما عمي راح يهتف مناديا زوجته ماري يبحث عنها في كلّ الغرف فلم يجدها غير ورقة تعلمه فيها أنها ذهبت للتسوّق وعليه أن يخدم نفسه بنفسه»⁽¹⁰⁾.

هنا يتكشف ذلك (الخنوع/الخضوع) عند العم حسان؛ إذ نزعته منه تلك الهيبة والرجولية الغائبة عنه، والتي تركت بدياره (المنسية/ المقصاة) من تفكيره الجديد داخل أجنحة الجحيم النورمندي المستعر، ولم يقتصر الأمر عند الزوجة (ماري) وكفى بل تعدّى ذلك إلى بناته اللواتي رفعن لواء الانصياع حينما ألغوه ذاتا هزيلة تفتقد إلى سمات الذكورية الحقّة، حيث تطالعنا (أحلام) مستعرضة شخصية إبنته (فريدة) - مثلا - ؛ فقالت عنها : « كانت تبدو أنانية ..مستهترة بالحياة..لا يهمه أحد..تدخّن كثيرا ..كانت تلبس ألبسة ضيّقة تكاد تلتصق بجسدها ..شفافة..شبه عارية(...)كثيرا ما راح عمي يستلمها من الشرطة »⁽¹¹⁾

تودّ (أحلام) عبر استعراضها لهذه الصورة المشوهة لابنة عمّها مآل كل مغترب لا يملك مقاليد السلطة بشتى أنواعها : (العقدية/الأخلاقية/التربوية...): لأنّ هذه الفتاة التي يطبعها (الاستهتار/الانحلال الخلقي/الضياع) لم تخلق مع هذه الطباع والميزات التي صارت منها يغدّي شخصيتها، ونهجا يمضي بها إلى عوالم التيه والضياع، لكنّها لم تجد ذلك الأب الذي يحمل قيم الشهامة والرجولة، والهوية التي ينتمي إليها، فيصيرها إلى فتاة نازلة، يميزها الخلق النبيل، وتستقوي بالدين الإسلامي السمع الجليل، ولعلّ ما يزيد من بشاعة هذه الصورة الفوتوغرافية التي تنقلها (أحلام) عن ابنة عمّها (فريدة) هو ذلك (العار) الذي لحقّ بالعم حسان، وهو ما دلّت عليه عبارة ((كثيرا ما راح عمي يستلمها من الشرطة)).

لم يك هذا الحال متعلّقا بـ(فريدة) وكفى، بل الأمر سيان حينما تعرج بنا (أحلام) إلى أختها (نورة)، فلم تك أحسن حال منها؛ حيث اختارت حرية الارتباط بشخص يهودي يدعى (صاموئيل)، الذي كان أحرص من والدها على تثبيت روح العقيدة اليهودية عندها وتدريسها الحرف العبراني، ترميزا من الروائية على شناعة الاستلاب في ضوء تيه الأنا - العم حسان - ؛ وهذا ما يجليّه قولها: «لحظتها تيقّنت من حقيقة البرق الذي اخترق صدر نورة .. لتنتقل من إنسانة ضائعة على الضفاف .. من إنسانة تائهة إلى إنسانة بنت لنفسيتها شخصية أخرجتها من عتمة الضياع لتجد نفسها مع صاموئيل الذي استطاع وبكل تفان وإتقان أن يجرّدها من روح العروبة ويزرع داخلها العبرية (...) استطاع أن ينتزع منها تلك الأحلام التي أراد يوما عمي حسان أن يحققها لفتياته هنا على الضفاف»⁽¹²⁾.

يكشف لنا هذا القول على حقيقة لـ(الآخر) الذي طالما كان طرفا معاديا للأنا العربية - تحديدا - وهو (الآخر الصهيوني)؛ حيث أعادت الساردة (أحلام) ذكره في الخاتمة النصيّة للرواية، والمتمثل في شخصية (صاموئيل) ، حيث تعرج الساردة إلى الواقع المأساوي

الذي حلّ بآبنة عمّها (نورة) التي اتّخذت هذا اليهودي كزوج لها، ثمّ وقع الطلاق بينهما، واستلّبت فلذة كبدها (لوشيا) منه ليفر بها إلى كيان الانتماء عنده (تل أبيب)، إلا أنّ (أحلام) لا تبصر إلى حجم الوقعية بقدر ما كانت تستشرف حالها حين تكبر في ديار (الكيان المغتصب)، فتغرس في ذاتها القيم الدنيئة : الحقد الضغينة العدوان الكره للذات العربية التي تملك نصيباً منها؛ وهذا ما يوضّحه القول الآتي: « كلّ الذي ستذكره حتماً أنّ والدها يهودي وأنّ عليها أن تحافظ على انتمائها حتّى تحقّق بذلك قطعة أرضها تضمّها وأباها في سلام بعد أن يغرس أبوها بذرة الحقد داخلها لتنمو شيئاً فشيئاً إلى أن تكبر وتتفجر في كل العرب مهما كانت مشاربهم».⁽¹³⁾

إنّ ما تضمّنه هذا المقطع السردى من دلالات ورمزيات عميقة يجلّي بوضوح نضج (الأنا)، ومدى استيعابها لمجريات الواقع؛ لأنّ خطورة الهمجية الصهيونية على العالم العربي أضحّت أقرب مما مضى سابقاً؛ خاصة في ظل فكر (الانتماء) بعد (الشتات) الذي أوضحته (أحلام)، وكأنّها بذلك تحزّ الذهنية العربية الغافلة عن مخططات (الآخر المضاد)، الذي يسعى جاهداً إلى محقّ مقوّمات المجتمع (العربي - الاسلامي)، لأنّ شعارات السلام التي تلوّكها ألسنتهم مدعاة للسخرية منهم، وهذا ما جعل (أحلام) صانعة لمفارقة التهكّم بهم، وهو ما دلّت عليه عبارة : ((في سلام بعد أن يغرس أبوها بذرة الحقد))؛ إذ لا يجتمع (الحقد) مع (السلام)، ولكنهم يجعلون منه مطيّة دنيئة للوصول إلى أهدافهم الاستدمارية المقيتة.

إنّ تناقضات الحلم والواقع، الطموح والفضّل، التي عاشتها (نورة) وغيرها مع الآخر الصهيوني قد تمثّلت « في الدعايات التي روجّ لها السلام والتعايش السلمي مع الآخر الإسرائيلي، في حين أنّ الواقع لا يقدّم إلا مزيداً من القمع والتدمير والاستيلاء».⁽¹⁴⁾

في سياق آخر لم تشفع للعمّ حسان - في نظرنا - التسمية التي اختارها كذلك العمّ حسان لابنته الأخرى (نورة) بعد تأكيد واعتراف منه على أن رجولته كانت في هذا الموضع وكفى؛ أي رجعته المتثاقلة إلى هويته في لحظة زمنية سريعة؛ وهذا ما يبيّنه قوله على لسانه وهو يخاطب الفتاة (أحلام): « جمعت رجولتي الغائبة عني منذ مدة من الزمن لأختار اسماً من هناك ..نورة».⁽¹⁵⁾

إنّ قراءتنا النقدية لهذا القول تحثّم علينا إضاءته عبر مفاتيحه الدالة، والتي تتلخّص عندنا في المثلث الممزق، الذي تعبّر عنه الدوال المفرداتية الآتية : (رجولتي الغائبة / هناك / نورة) ، فأماً عن الأولى فهي تلخّص ذلك الاعتراف الصريح بفقدان : (السلطة/القوة/ التحكم/ السيطرة/الشجاعة..وغيرها)، وعن الثانية فإنّها تلخّص ذلك الإقصاء والتعالي السلبي للوطن الأم؛ حيث استبدل مفردة (الوطن) بـ(هناك) وكأنّ الجزائر بل غريب عنه، لا يعلمه، لا ينتمي إليه، وبخصوص لفظة (نورة) التي أراد أنّ يجمّل بها هويته كشكل لا جوهر؛

إذ لو كان القصد إعادة بناء هويته من خلال هذا الاختيار المسمياتي لألفينا - وفق تصوّرنا - تكملة لقوله، كأن يقول - مثلاً - : ((نورة ..لأجعل منها امرأة أصيلة تناظر أم السعد))، لكن اكتفاه بالتسمية المفرغة من كل محمول يزيد من وصف حاله بأنّها (ممزقة/مشتتة/محتضرة/معمية/منهوكة/مستلبة...وغيرها). وهذا ما جعله في سياق نصّي آخر منبأ ابنة أخية (أحلام) بضياعه في متاهات الجراح، ودهاليز الحلم المبهرج الكاذب، حيث خاطبها قائلاً: «إيه يا أحلام ...السنوات تمرّ .. تتطح بعضها بعضا ..وسفينتي الفارقة لا منقذ لها..ولا مرافئ تعود إليها ..تبلم جراحي ما اقترفه حلم كاذب».⁽¹⁶⁾

لا مناص أن تتشكّل في ذهنية (أحلام) الفكرة التدافعية مع هذا الآخر ، القريب نسباً، البعيد هوية ووطناً ، فما سمعته منه قد لا يجد تجاوباً داخل ميزانها القيمي المصقول بعناوين : الهوية/الانتماء/العقيدة/الموروث، ومما يدلّ على هذه الخاصية التدافعية هو ذلك الإذلال الذي لقيه (العم حسان) لات زيارته لبلدته التي نشأ في حضنها، وشمّ عبوق نسيمها، حيث يطالعنا قوله، متحدثاً عن ذلك النفور الذي وجده من أهل قريته، إذ يقول عن ذلك الموقف المأساوي : « بقيت في البلدة مدة طويلة ..أحاول أن أجد لنفسني مكاناً في حضنها، فلم ألق من نظرات أهل القرية غير نظرات الإذلال والاحتقار..كنت بالنسبة إليهم حركياً خائناً».⁽¹⁷⁾

إنّ هذا الكلام يبعث بنا إلى قراءة ذلك القلق الأليم الذي اخترق ذاته، فلم يجد ذلك التجاوب مع بني جلدته، ولا حتى النظرة الترحيبية منه، فقبول بالاحتقار والإذلال، وما يزيد من حدة ذلك نغته بـ(الحركي الخائن) الذي يطلق على أعوان الظلمة المعتدين، على حساب أبناء وطنهم المخلصين، وهذا ما يؤسس للتدافعية التي تقذفها (الأنّا) مع (الآخر) الذي كان في وقت بعيد تابعا لها .

عليه، فإنّ أمل التلاقي والتضاييفية مع (الأنّا) تصبح وهماً، أو شداً لخيوط واه رفيع، لأنّ مؤشرات العودة تجد لها مغاليق موصدة بإحكام، وهذا ما عبّرت عنه (أحلام) في سياق وصفها لهذه الشخصية الممزقة: « كان يسند كفه على كتفي..يدندن بأغنية حزينة..وكانت زفرته طويلة ..بحجم السنين التي عايشته هنا..اشتاق كثيراً إلى العودة ولكن لمن يعود ؟ ومع من يعود؟ فالأبواب أصبحت صدئة لا تفتح ..لقد هجر وطنه وهو ضعيف والآن لا يستطيع أن يعود إليه لأنّه أضحى ضعيفاً أكثر مما كان عليه ».⁽¹⁸⁾

ولكن هذا لا يمنع من أن نلمس ذلك التجاوب الحواري الذي ترسّخ عندها في مساءلتها للزوجة (ماري)، فرأت فيها المرأة الغربية المتسامحة المحاورة، التي تتبذ العصبية والحقّد، لأنّها حاملة للواء الإنسانية السمحي؛ حيث نقلت لنا (أحلام) قولها المندرج تحت هذه

المظلة الإنسانية، إذ تقول : « ولد الإنسان حراً..إنسانيتنا تدعونا لنبحث عن حرية الآخرين داخل أجسادنا ..داخل أحلامنا ..داخل أرواحنا هكذا علمتنا ديانتنا ».⁽¹⁹⁾

إن الحرية التي تتشوق بها (ماري) - وإن كانت حاملة للمبدأ الإنساني - إلا أنها تعدّ ناموساً تدميراً في معتقد (أحلام)، لأنّ العقيدة الإسلامية التي ترسخت في ذهنيها واشترأت لها ذاتها الأصيلة لا تؤمن بعبثية التحرر الذي سيصدق بتباشير الانحلال الأخلاقي، خاصة أن السلطة الذكورية تظلّ متجذّرة في ذاتها وفق شكل دائري لا عمودي، كحال (العم حسان) الذي فقد (الهيبة/المروءة/الشهامة)، وهذا ما جعله مشاهد منظر أسرته الذي يسمه (التفكك/ التشتت/ الانحلال/ التحرر الفاضح...); ولعل الأمثلة التي استشهد بها في الفقرات السابقة لدليل بيّن على هذه المأساة التي تهاوت على فرد أراد أن يتصل من (هويته/وطنه/لغته...).

م2- تيه الآخر أم عبث بالهوية :

إنّ الحديث عن الهوية هو حديث عن الثوابت والعقيدة والتقاليد والميراث الفكري لأي مجتمع من المجتمعات، فهي بذلك تؤسس لمعمارية التشييد الحضاري، وسلطة البقاء له، حيث إنّ الهوية تتشكل « في أدغال الذات، حيث تتجسد عبر انتماءات ومكونات تتعلق بالجنس والعمر والطبقة الاجتماعية والموروث الثقافي، الذي يشكل ركيزة أساسية فيها، مما يجعل الآخر المعتدي، يهتم بالقضاء عليها، أي على كل الثوابت التي تشكل الروح والوعي».⁽²⁰⁾

لقد حرصت الروائية (حسيبة موساوي) على تقريب عدستها النقدية الرؤيوية من شخصية العم (حسان)، قصد إجلاء علاقته مع (الهوية) التي رأتها (ممزقة/مضمحلة/محوقة) عنده في بلده الجديد (نورمندي); فتشظى الهوية في كينونة العم (حسان)، وتماهيها في عالم الآخر (الاستلابي) هو بمثابة « انحراف عن خصوصيات " الأنا" وعن مرجعياته الحضارية من طرف فئة انبهرت بالآخر، وخمود ظاهري في مكنونات الوعي بقضية " النحن"، مما يوحي بأنّ هناك تواطؤ ما يعقد أواصره مع عناصر الهوية الوطنية لصالح الآخر».⁽²¹⁾

تعقد الرواية في بنيتها التحية العميقة مقارنة بين (المنفى/نورمندي) بصفته مكاناً جحيمياً في استلاب الرجل الجزائري - العم حسان - ، وبين الوطن الأصلي له (الجزائر) بصفته مكاناً حميمياً تلتقي فيه : الهوية، الأصالة، الاسلام...وغيرها؛ فالمنفى (باريس/نورمندي) قد أضحى الوطن الجديد للعم (حسان) ، الذي يكسوه الجمال العجائبي الفاضح الذي استرسلت (أحلام) في التفتن في وصفه، ومثال ذلك قولها : «لم أحس كيف اغتلت تلك السويغات وأنا أتأمل تجايف هذه المدينة العتيقة ..حلم الشعراء وأهل القلم وكل من يعشق الجمال الصامت ليجعله لوحة في كتابه أو ديوانه، مدينة الملابس الفاخرة

والماركات العالمية (...). لم أشبع نهمي بعد من هذا الرونق والوقت قد داهمني بعد أن اقتربت أنفاسه الأخيرة»⁽²²⁾.

لكن السؤال (المركزي/الاشكالي) : هل كان المنفى حيّزا فردوسيا للمغترب (العم حسان) عن الوطن الأصلي - الجزائر - الذي يؤسس للهوية (الأصلية/الأصيلة) ؟ إن مكاشفة الأنا الساردة (أحلام) لماهية الوطن وحقيقة توطّنه عند العم (حسان) قد جعلها تقف أمام الصدمة أو الرجة العنيفة غير المتوقّعة في ظلّ حداثة سنّها وبراعتها طفولتها، فبعد أنّ كانت في قرارات ذاتها أنّ مساحات الوطن في قلب قريبها المغترب يمثل (النحن/الانتماء/الهوية) بالرغم من اغتراب الشخصية إلى الديار البعيدة (فرنسا)، إلا أنّ هذه الخواطر الوهمية - إن جاز توصيفها - سرعان ما يصيبها الخرق والتلاشي، لأنّ تيمة (الوطن) قد أضحت عندها فيما بعد حاملة لمفاهيم تناظر القوالب المفرغة من محتواها؛ حيث أبصرت (التمزّق/التلاشي/التجايف/الخواء) على أصعدة عدة : الوطني/النضالي/الحلمي... وغيرها ؛ إذ أصبح الوطن الأصلي (الجزائر) بمختلف تعالقاته (الحضارية / الدينية / الاجتماعية ...) عنده مشكّلا لـ : (الهناك/الآخر/المختلف/الغريب...)، وتمثيلا لذلك نورد هذا المقطع السردى الذي يجلّي هذه الحقيقة الأليمة التي اختمرت في ذهنية (أحلام)؛ حيث نلفيها قائلة : « لم يبق له شيء يربطه بهذا البلد الذي استولى عليه ذلك الغاشم الهائم في أحضانها (...) كان ضعيفا في جسده.. في أمله وفي حلمه فاخترل هذا الضعف بالهروب إلى منطقة لا يشتم فيها رائحة الدم ولا يرى فيها ذلك المستبد القاتل فاختر أن يكون هروبه إلى نورموندي الحدود الفرنسية الانجليزية أين يجد خضرة بلاده التي افتقدتها وراء البحر، وطقوس الصمت على حافتها لا يسمع الأنين»⁽²³⁾.

يبوح هذا المقطع النصّي بالجراحات المدمية عند (أحلام) وهي تصف حالة العم (حسان) بشكل ثاقب؛ إذ تحيلنا إلى ذلك الضياع (الجسدي/الحلمي/الاجتماعي/الفكري)، فقد ألمّ به الضعف فجعل جسده خاويا هزيلا ، والأصعب من ذلك هو تنصله من قيود الهوية والانتماء لوطنه؛ خاصة في محنته التي تهاوت عليه جراء استدمار همجي استعلائي، فلم يك ذلك الوطني المستبسل الذي يجري ذاته على بساط الوغى والنضال، ولكن تخيّر القهقري والملاذ، « فأوقات الأزمة أو التحوّل في تاريخ أيّ أمة أو أيّ فرد هي في غالب الأحيان فترات البناء الكثيف للهوية أو إعادة صنعها»⁽²⁴⁾.

تزيد النبذة العالية الساخرة للأنا حينما تجعل من (نورموندي) بلدا أصليا للعم (حسان)، وهذا ما يجليه قولها : ((فاختر أن يكون هروبه إلى نورموندي الحدود الفرنسية الانجليزية أين يجد خضرة بلاده التي افتقدتها وراء البحر)). ولعلّ ما يبيّن لنا الحسرة والغيظة عندها هو عبارة : ((وطقوس الصمت على حافتها لا يسمع الأنين))، إذ إن بؤرة التوتر في

الجملة السابقة يلخصها دال (الأنين)؛ الذي يشي بحجم النكبة والويلات التي ألمت بشعب مسالم أعزل لم يغترف رجاله ولا نساؤه ولا صبياناه ذنبا فقبلوا بآلة استدمارية مستقوية، ومع ذلك تجد في عمها متخيرا الهدوء في أرض غربية أخرى تاركة وراءه الصيحات والزفرات التي تتعالى من أفواه أبناء وطنه.

أمّا عن الجفاء الثقافي الذي اعتراه فقد تمثل في طمس معالم اللغة العربية التي هي عماد المجتمع العربي الإسلامي، والتي تؤسس لكيونته الوجودية داخل المجتمع العالمي الفسيح بمختلف أجناسه وتياراته المعرفية؛ إذ نجدها قائلة في معرض معاينتها لمكتبة عمّها (حسان): « كنت أنا في الصالون أمام المكتبة الفاخرة بالكتب التي تفتقر إلى الحرف العربي على خلاف مكتباتنا التي تحتضن على الأقل كتابين باللغة الفرنسية ».⁽²⁵⁾

يحيل هذا المقطع السردي إلى إشكالية معقّدة، حيث يشي بذلك الانقسام الكلي عن الثقافة العربية؛ إذ إن عبارة (تفتقر إلى الحرف العربي) لا تحمل مضمونا سطحيا يقوم على إزاحة اللسان العربي من رفوف المكتبة، أو تفضيل لغة عن أخرى، لأنّ القصد - وفق نظرنا - يتأتى في ذلك الاستلاب الفكري الذي ألمّ بشخص العم (حسان) فجعلت منه الآخر الذي يفقد الرجولية المنافحة عن الأصول العربية التي كانت في أزمنتها المشرقة منبرا ثقافيا وحضاريا للأصقاع الأوروبية والأعجمية، فشيّدت ممالكها العتيقة في عقر ديار الآخر؛ فالهوية الحقّة هي تلك التي تجد من يعلي من شأنها ويدافع عن حماها؛ ويصون معالمها، ويتشبّث بمبادئها وقيمها؛ وهذا ما نوّه به الناقد (زكي نجيب محمود) بشكل واضح صريح؛ إذ الهوية - وفق متصوّرهِ - لا تصان إلا بأن يتمسك الشعب بثقافته التي ورثها عن أسلافه.

لقد حرصت الفتاة (أحلام) على أن تضرب مثالا قاسيا موجعا، وفق شكل مقارناتي، تجلّي فيه قيم الانتماء عند شعب الشتات - المجتمع الصهيوني - ، الذي أدرك منزلة الانتماء وحقيقتها التي وجب صيانتها، وتجعلها كصورة مقابلة لشخصية (العم حسان)، الذي اختار (الغربة/الشتات) فتتمحى بذلك ذكريات الأمس، ويضحي بين لهيب الاحتراق في عالمه الجديد الموحش؛ حيث تقول في هذا الصدد : « رغم ذلك التشتّت الرهيب الذي جعلهم يهيمنون في جميع بقاع العالم، إلّا أنّهم استطاعوا أن يحافظوا على ذلك الانتماء، لأنّهم يدركون جيّدا أنّ الانتماء هو الوطن الحقيقي على عكس عمّي حسان الذي هجر الوطن وما يحمله الوطن ».⁽²⁶⁾

م3- الآخر : حتمية القطعية أم استلاب جبري :

شكّلت ثنائية (القطعية/الاستلاب) بؤرة التوتر في معظم القراءات التي تكاشف فلسفة (الأنا / الآخر) في النصوص السردية التي تجتهد في سبر هذه القضية الشائكة على مختلف المدارات والأصعدة، ولعل من بين تلك النصوص رواية (حلم على الضفاف) التي قدّمت

وثيقة تفصيلية تستقرأ فيها شخصية مركزية ممثلة في العم (حسان)، الذي تجعل منه طرفا متابعا من طرف قريبتة (أحلام)، التي شاهدت بقايا الهوية عنده، لأنّ خيار الرحيل عن الديار الجزائرية إلى أرض المنفى (نورمندي/فرنسا) قد يشي بأحد القرارين (حتمي قسري/استلاب جبري).

إنّ استنطاق جوهر (القطيعة/الاستلاب) لا يتأتى إلا بعرض لبعض المقاطع السردية التي تجليهما، حيث نقرأ قول الأنا الساردة (أحلام)، وهي تصف العم (حسان) في مراثية تراجيدية، حيث تقول: «لحظات فقط ورائحة الغربة المعبأة داخل ذكريات الأمس تعود لتلاقي زمنا آخر وفردا آخر ... فرّ من بلده ليس هاربا؛ وإنّما رغبة وشوقا للاستمتاع ولو قليلا فوق هذه الضفاف التي اختارها عمّي هروبا من الأمس.. ينحت عليها وطنه».⁽²⁷⁾

نلمح بجلاء في هذا القول الذي تسرده (أحلام) ما يشبه حتمية القطيعة مع (الأنا)، وهو ما دلت عليه جملة ((فرّ من بلده ليس هاربا؛ وإنّما رغبة وشوقا للاستمتاع))، فдал (رغبة) يحمل البعد الاختياري لا الجبري، لأنّ ذكريات الأمس التي تجده في وعيه حيزا يلفها بعناية فتجد فيه الرجل الوطني الأمين، لكن المفاجأة ستظل صدمة في مفكرة الفتاة (أحلام)، التي دريت - رغم حداثة سنّها - هذا التصل القيمي، والجفاء الوطني عند العم (حسان)، الذي لا يناظر عندها الزوجة الشهيذة (أم السعد) التي ترك قبرها المضمخ بـ : العز/الإباء/الشرف/النخوة... وغيرها من معالم الهوية الأصيلة المشرقة، تلك التي قالت عنها (أحلام) : ((ولكن أم السعد بنت واد غير بنت تاكفريناس خلقت حرّة لمتوت حرّة، وتدفن حرّة)).

لقد دلّت لفظة (حرّة) التي أطلق العنان لها (العم حسان) على المعنى الذي أرادت أن تشرّب منه (أحلام) فتستشرق شخصية (أم السعد) أمامها، تلك المرأة (الأمازيغية/الصحراوية) الأصيلة، فالحرّة في القاموس الجزائري يعدل معناها عن (التحرر/الحرية/الانسلاخ...)، لأنّها تعني (الفحلة/الشريفة/الطاهرة/الشجاعة...). في مقابل ذلك فإنّه لا يجد حجة لتفنيد حقيقة الجمال الذي لفّ زوجته الشهيذة (أم السعد)، الذي استرسل في وصفها بشكل غرائبي عجائبي، وفي ذلك ملمح - نراه مهما - يتأتى في أنّ قرار الرحيل إلى فضاءات الحلم الواهية لم يك القصد منه التعويض عن ذلك الجسد العربي بآخر غربي، فبهاء المحبوبة الأولى لا يضاهي نظيرتها في شتى الأصقاع، وهذا ما نفهمه بوضوح في حوار مع (أحلام) عنها؛ إذ يقول: «أينعت هي الأخرى وتفجّرت أنوثتها.. ازدادت جمالا ورونقا.. كانت شمسا مورقة.. ربيعية.. خيزرانية الفتاة في تلك الناحية، وهي تتبعث منها الروح الأمازيغية (...) تمتد عروقها نحو الشمس لتصلق بشرتها البيضاء وتمدّها لمعانا ذهبيا.. فتبرز خضرة عينيها.. وتمتص منها وجنتيها حتى تتدفق حمرة ولمعانا».⁽²⁸⁾

إنّ نشدان المحبوبة (الوطنية/ المخلصة /الشريفة/ الجميلة) ما هو إلا استرجاع لذكرى (الوطن) الذي يمثله في طيف (أم السعد)، فإن كان رحيله - بعد أن فرقت بينهم رصاصة المستدمر الفرنسي- إلى بلاد نورمندي الخضراء هروباً من (الجبن /الضعف) الذي جعله يستكين لات تهجم العساكر على أسرته، وفي المقابل دفاع المرأة عن شرفه وكرامته، إلا أنّ (أحلام) تتلمس ذلك الندم وتلك الرغبة إلى تكفير خطيئته، بعد أن تهاوت دموعه عند وداعه لها وهي تغادر أرض نورمندي الموحشة الخائفة له؛ إذ تصف هذا المشهد التراجيدي بقولها : « بقي يعرج بأنظاره لملاحقتي وهو يذرف دموعاً كالأطفال، ولم يبرح مكانه إلى أن امتطيت الطائرة وانطلقت، ولم يعد يتراءى غير طيفها وهو يحلّق في الأجواء»⁽²⁹⁾.

إنّ دلالة (الدموع) التي نقلتها لنا الساردة (أحلام)، وهي تصف حال عمّها (حسان) لدليل صارخ على مرارة (الفقد/ العوز) عنده؛ لأنّ رؤيته لابنة أخيه (أحلام) هي بمثابة رؤية للوطن الذي تجلّى في شخصها، مما يجعلنا - وفق نظرنا - ننظر إليه على أنّه (الأنا) (الضائعة المضللة) بدلاً من أن يصير إلى آخر مضاد لها، فحتمية (الفرار/ الرحيل) من ذلك الجبن والضعف، الذي جعله جاثماً أمام قتلة زوجته دون حراك منه، قد يشفع له بشكل جزئي لا كلي؛ لأنّ للغربة ضربيتها - على حد تعبير حميدة نعنغ- ، تلك التي وسّعت الهوة بينه وبين أهله في وطنه الذي تركه خلفه.

بناءً على ما تقدّم نخلص إلى النتائج التي أبانت عنها قراءتنا النقدية لرواية (حلم على الضفاف) لـ : حبيبة موساوي، والتي تتراوح بين (العامة/الخاصة)؛ حيث سعيها إلى كشف تضاريس الآخر في الميزان القيمي والرؤيوي للأنا، والنش في تجاعيد الذاكرة الحلمية التي اتخذتها (أحلام) مطية للوصول إلى الحقيقة (الأليمة/المفجعة/المحمومة)؛ وبيان ذلك الآتي :

- حضور تيمة السفر والارتحال في رواية (حلم الضفاف)، مما يقرب هذه الرواية النسوية من أدب الرحلة.
- هيمنة الخاصية السياحية المقرونة بالانبهار والاندهاش في الرواية ، وذلك بسبب التفاوت الحضاري بين الشرق والغرب، فقد نقلت لنا (أحلام) تلك الصورة العجائبية لمدينة نورمندي فأبدعت في وصف معالمها بشكل جمالي انسيابي.
- ترتكز صورة (الآخر) في رواية (حلم على الضفاف) على علاقة (الأنا) التي مثّلها شخصية (أحلام) بالآخر الذي أحالت إليه شخصية (العم حسان) بشكل (مركزي/محوري)، وكذا مع تلك الومضات العلائقية مع شخصيات أسرته، سواء أكانت تلك العلاقة أو التضاييفية إيجابية أم سلبية.

- تشغيل المرأة رمزا حضاريا للتأشير على ثنائية الشرق والغرب، فقد مثّلت الأولى شخصية (أم السعد) التي عمدت إلى توظيفها الروائية (حسيبة موساوي) لتجعل منها رمزا مضمّنًا لبلدها (الجزائر)، وعن الأخرى فقد تقمّصتها شخصية (ماري) التي كانت ترميزا للغرب.
- اقتران البطل المحوري (أحلام) في الرواية بشخصية الكاتب تطابقا وسيرة وانعكاسا وتمثيلا وإحالة، مما يجعل من رواية (حلم على الضفاف) لونا من رواية السيرة الذاتية.
- سلّطت الروائية (حسيبة موساوي) الضياء على قضية شائكة تخصّ الآخر الجزائري المغترب، الذي كان في أمس البعيد جزء من (الأنّا)، ولكنّه اختار الوطن الجديد (نورمندي)، وتخلّى عن كل الروابط القيمية الأصيلة، فاستلّبت منه : (الهوية/ الوطنية /الأسرة)، فأضحى بذلك (الآخر) الذي يقابل بالتدافعية والإزاحة من طرف (الأنّا)؛ إذ لا تطابق أو تجانس بينهما بعد أن فرّقت بينهما التأشيرة المضللة.
- عاينت الرواية (الآخر) من الداخل، فنقلت لنا هواجس (العم حسان) وخواطره ومكنوناته المضمخة بالندم والحسرى والألم بعد استحالة العودة والتمزّق الذي ألمّ به، كما أنّها أطلعتنا - بشكل يحمل العمق - على أسرته، فنعتت شكلها وشخصياتها، وعرجت إلى توصيف أحوالها ونهاياتها الأليمة في ظلّ تمزّق الهوية، والتصلّ من الانتماء إلى الوطن الأم عند (العم حسان).
- دافعت الروائية (حسيبة موساوي) عن (الأنّا) الممثل في (أم السعد) فجعلت منها رمزا للوطن، فوصفت جمالها، وأحالت إلى القيم النبيلة التي تسمها والتي تمثّلت في : (العز/ الشهامة /النخوة /البطولة /الشجاعة /الأصالة ..وغيرها)، وهذا ما جعلنا نقف أمام ذاك الوهج الذي اصطبغ بـ(الأنّا) (العليمة / العارفة)، والتي استطاعت أن تلامس دقائق الهوية في تشكّلاتها القيمية المختلفة، سواء تعلق الأمر بعمّها (العم حسان) أو ببناته اللواتي انسلخن في مجتمع يجعل من حرية مطية للتفسيخ الأخلاقي العبثي.
- شكّلت الأنّا الساردة (أحلام) محورا رئيسا ومرتكزا أساسا في سير الرواية، باعتبارها الطرف الرقيق لمجريات الأحداث والوقائع، فكانت الذات العربية الأصيلة التي استاءت لحال عمّها وبناته، وعاينت ذلك الشتات الذي ألمّ بأسرته، بعد أن فقد عصا السلطة، ونزعت منه المهابة، وهذا ما يشي بخطورة القضية التي تواجهها (الأنّا المغتربة)، التي ستتحوّل بشكل تلازمي إلى الآخر الغريب، الذي تتمحي من ذهنيته كل أواصر الهوية والانتماء.

- (1) شيمية محمد الشمري، الآخر بوصفه أعمى : قراءة في أدوار الجماعة المهمشة في رواية ((نزل الظلام))، ملتقى الباحة الأدبي الرابع (تمثيلات الآخر في الرواية العربية)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2011. ص221.
- (❖) حسيبة موساوي روائية وأدبية جزائرية، من مواليد 23 ماي 1973 بولاية سطيف، نشأت في جو أسري جدّ محافظ على تلك القيم و المبادئ التي يعتقد أنّها أصالة لا تستدعي أيّ فكر آخر، تخوض عالم الكتابة للصغار والكبار معا، نالت الجائزة الأولى بروايتها ((حلم على الضفاف)) سنة 2003 ، أمّا بخصوص المناصب التي تقلّدتها فتتلخص كالآتي :
- عضو في اتحاد الكتاب الجزائريين
- رئيس تحرير جريدة غاردينيا
- مديرة مكتب دراسات حاليا
- (2) أبو المعاطي خيرى الرمادي، مفهوم الآخر في الرواية المصرية المعاصرة، أبحاث ملتقى الباحة الأدبي الرابع (تمثيلات الآخر في الرواية العربية)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2011. ص45
- (3) ريم الفواز، انعكاسات الآخر في الرواية العربية، أبحاث ملتقى الباحة الأدبي الرابع (تمثيلات الآخر في الرواية العربية). ص209- 210
- (4) سعد البازعي، مقاربة الآخر، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1999. ص11
- (5) صلاح صالح، سرد الآخر : الأنا والآخر عبر اللغة السردية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003. ص10
- (6) بشير بويجرة محمد، الأنا والآخر ورهانات الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، (دط)، 2007. ص11
- (7) ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (دط)، 2013. ص103- 104
- (8) ريم الفواز، انعكاسات الآخر في الرواية العربية، أبحاث ملتقى الباحة الأدبي الرابع (تمثيلات الآخر في الرواية العربية). ص212
- (9) بشير بويجرة محمد، الأنا والآخر ورهانات الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية. ص27
- (10) حسيبة موساوي، حلم على الضفاف، دار الروائع، سطيف، الجزائر، ط2، (دت). ص21- 22
- (11) المصدر نفسه. ص102- 103
- (12) المصدر نفسه. ص36
- (13) المصدر نفسه. ص105- 106
- (14) نهال مهيدات، الآخر في الرواية النسوية العربية : في خطاب المرأة والجسد والثقافة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2008. ص115
- (15) حسيبة موساوي، حلم على الضفاف. ص129
- (16) المصدر نفسه. ص62
- (17) المصدر نفسه. ص36

- (18) حسيبة موساوي، حلم على الضفاف. ص75
- (19) المصدر نفسه. ص36
- (20) ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (دط)، 2013. ص15
- (21) بشير بويجرة محمد، الأنا والآخر ورهانات الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية. ص67
- (22) حسيبة موساوي، حلم على الضفاف. ص9- 10
- (23) المصدر نفسه. ص12- 13
- (24) أبو المعاطي خيرى الرمادي، مفهوم الآخر في الرواية المصرية المعاصرة. ص53
- (25) المصدر نفسه. ص23- 24
- (26) حسيبة موساوي، حلم على الضفاف. ص105
- (27) المصدر نفسه. ص24
- (28) المصدر نفسه. ص43- 44
- (29) المصدر نفسه. ص117